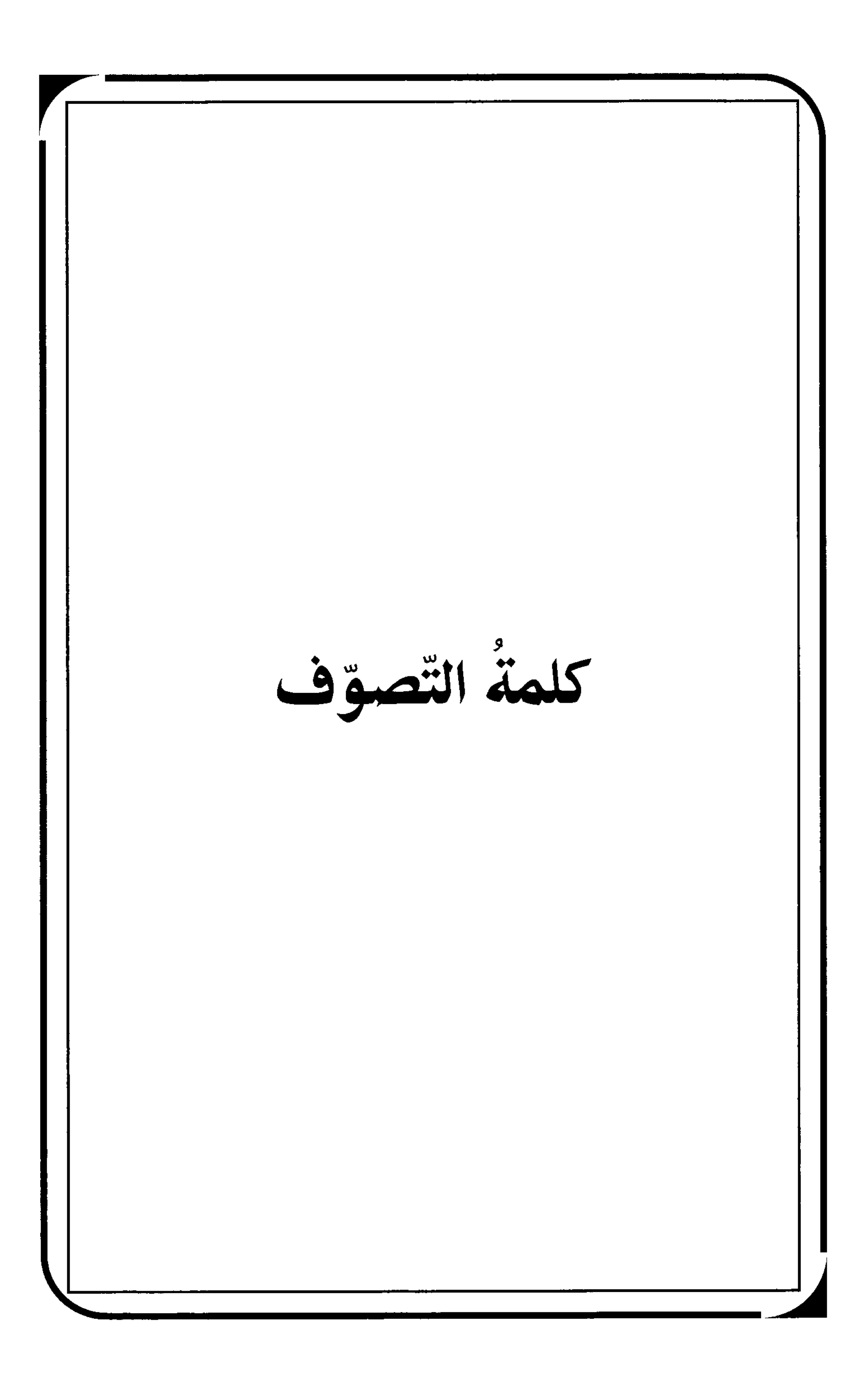


كلمةُ التّصوّف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

عونك يا لطيف

(١) المحمود الله. ومحمدٌ رسوله. اللّهم لك العبادة والتّسبيح والأذكار والتّقديس وإليك القربات، ومنك البركات، إنّك واهب الحياة. صلّ على ملائكتك المقرّبين، وأنبيائك المرسلين، وأهل طاعتك أجمعين. وخصِّص سيّدنا وصاحبنا محمّداً وآله بأفضل التحيّات والصلوات.

وبعد، أيّها الأخ الشفيق والحميم الصديق، فإنّ الصداقة التي تأكّدت بيننا، ألزمّتني إسعافكَ في تحرير كلمات مومئة إلى الحقائق، شارحة «لمقامات الصّوفيّة ومعاني مصطلحاتهم، وما استروحوا إليه من المعارف، وعلم القلب، وما فوقها وما دونها، وثبتِ ما يفتقر إلى البراهين، على سرد مضبوط ونسق مطبوع، من غير كثير تبع لاصطلاحات أصحاب الحقيقة في العلوم البرهانيّة؛ فبادرتُ إلى إجابتك وقرّبتُ ما يقع عليه الاصطلاح إلى فهمك، نازلاً إلى قدر قوتك. وليعذّرني أبناء الحقيقة على استعمال ألفاظٍ بإزاء معانٍ، خصّصناها بها هاهنا فإنّ المقصود واحد.

فصل [١] ـ [في لزوم التمسّك بالكتاب والسنّة، وأنّ الحقيقة واحدة]

(٢) أوّل ما أوصيك به تقوى الله عزّ وجلّ. فما خاب من آب إليه، وما تعطّل من توكّل عليه. احفظْ الشريعة فإنّـ[ـها] سوط الله، بها يسوق عباده إلى رضوانه. كلّ دعوىً لم تشهد بها شواهد الكتاب والسنة فهي من تفاريع العبث، وشُعب الرّفث. من لم يعتصم بحبل القرآن غَوى، وهوى في غيابة جُبّ الهوى. ألم تعلم أنّه كما قصرت قوى الخلائق عن إيجادك، قصرت عن إعطاء حق إرشادك؟ بل هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١] قدرته أوجدتْك، وكلمته أرشدتْك.

(٣) لا يلعبنّ بك اختلاف العبارات فإنّه ﴿إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[٢] وأحضر البشر في عرصة الله تعالى يوم القيامة لعلّ من كلّ ألفٍ تسعمائة وتسع وتسعين، يبعثون من أجداثهم وهم قتلى من العبارات، ذبائح سيوف الإشارات، وعليهم دماؤها وجراحها. غفلوا عن المعاني، فضيّعوا المباني.

الحقيقة شمسٌ واحدة لا تتعدّد مظاهرها من البروج. المدينة واحدة والدّروب كثيرة، والطّرق غير يسيرة.

(٤) صمْ عن الشّهوات صوما ينقطع باستهلال هلال موتك وورود عيدك بقدومك على مُبدِئك ومعيدك. صلّ لربّك واللّيل مُظلَم فيسترْهِبك بتحيّر حواسّك، ويخوّفك بهَمْس أنفاسك، فيلزمك حينئذ الالتجاء إلى نور الأنوار. قِفْ على باب الملكوت، وقلْ: «يا قيّوم الملكوت! الظّلام أحاط بي، وحيّات الشّهوات لسعتْني، وتماسيح الهوى قصدَتْني، وعقارب الدنيا لدغتْني، وتركْتَني بين خصومي غريباً وحيداً يا من هو أرحمُ عليّ من أبوَيّ! انقِذْني وخلِّصني من سخطك. أدعوك يا ربّ بأنين المذنبين! أدعوك يا ربّ بتأوُّه المجرمين! أناديك يا ربّ نداءَ غريق في بحر الطبيعة، هالك في مَهْمة الشهوات! ها أنا مطروحٌ على باب كبريائك، أيحسن من لطفك ردّ الفقير خائباً! أيليق بجودك طردُ الكئيب قانطاً! كلّ عبد استجار بمولاه

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة العاديات، الآية: ٩.

أجاره؛ فما لعبدك قد استجار بك، فلا تجيره! أسير على الباب واقفٌ يشكو من جيران سوء. لكل أسيرٍ قومٌ يرحمونه؛ فما بال أسيرك لا ترحم عليه بنظرة منك! عبيد الآثمين في فرح ونيل إذا لاذوا لمواليهم أحسن مواليهم إليهم؛ فما لعبدك الملتجئ بجناب جبروتك فلا تلتفت إليه بجذبة من جذبات نورك! أفيرجع عبيد الآثمين مسرورين في فرح ونيل، وعبدك يرجع خائباً عن نوال نورك منتكس الرأس بينهم؛ فهلاّ يقول عبيد الآثمين: «ويلٌ لك ما بالك لم ينظر إليك مولاك! ويلٌ لك سعدنا وشقيت، ووصلنا وبقيت! ويلٌ لك هذه عطايا موالينا فأين عطيّة مولاك!» سبحانك، ربّ الجبروت، أنت سبّوحٌ قدّوس، ربّ الملائكة والرّوح، أذِقْني حلاوة أنوارك وأهِّلْني لمعرفة أسرارك! إلهي كم من عبدٍ آبِقٍ ألَّم به مرضٌ فطرده النّاس ولم يرضوا بمجاورته فحملوه وطرحوه على باب مولاه؛ فبينما هو ينوح على نفسه إذ أشرف عليه صاحبُه، فرحم غربَته وذلّته؛ فقال: «يا عبد سوءٍ هربتَ عنّي، ثُمّ عدتَ إليّ حين لم يقبلك غيري فعفوتُ عنك». إلهي! أنّا العبد الآبق حلّ بي مرض المعاصي؛ ها أنّا مطروحٌ على باب كبريائك على ظمأٍ فما بال مريضك لا تعالجه وظمآن لطفك لا تسقيه شربةً من زلال عفوك! يا من قذف نوره في هويّات السابقين، وتجلّى بجلاله على أرواح السائرين وانطمستْ في عظمته ألباب الناظرين، اجعلْني من المشتاقين إليك، العالمين بلطائفك. يا ربّ العجائب، وصاحب العظائم، ومُبدِع الماهيّات، وموجد الإنّيات، ومُنزِل البركات، ومُظهِر الخيرات، اجعلْنا من المخلصين الشاكرين الذاكرين الذين رضوا بقضائك وصبروا على بلائك. إنّك أنت الحيّ القيّوم، ذو الحول العظيم والأيد المتين، الغفور الرحيم.

فصل [٢] ـ [في ذكر أمور كالكلّي والجزئي والاستقراء والجوهر والهيئة وإبطال الجزء الذي لا يتجزّى والتّناهي ومحدّد الجهات والعناصر والمكان وامتناع الخلاء]

(٥) لمّا التمستَ مني ذكر حدود هذه الأمور فأنّبهك على أشياء لا بدّ لهذه الحدود منها:

اعلم أنّ إدراكك الشيء هو حصول صورته فيك؛ فإنّ الشيء إذا علمته، إن لم يحصل منه أثر فيك، فاستوت حالتاك قبل إدراكك وبعده، وهذا محال. وإن حصل منه أثر فيك إن لم يطابقه فما علمته كما هو، فلا بدّ من المطابقة، فالأثر الذي فيك إنّما هو صورته، وهذه الصورة، إن طابقت الكثيرين سمّيت «كليّة»، واللّفظ الدّال عليها «كليّاً»، كمفهوم الإنسان المطابق لزيدٍ وعمرو وغيرهما. كلّ صورة لا يمكن مطابقتها للكثيرين، كمفهوم زيدٍ أو «هذا» أو «هذا الإنسان» فهو «جزئيّ».

والحقيقة تنقسم إلى «بسيطة» وهي التي لا جزء لها في العقل كمفهوم الوحدة؛ وإلى «غير بسيطة» وهي الّتي لها أجزاء كالحيوان، فإنّه مركّب الجسم والأمر الذي موجب حياته فأحدهما الجزءُ العامّ، والآخرُ الجزءُ الخاصّ، وحقيقته مركّبة منهما. والجزء يتقدّم تعقّله على تعقّل الحقيقة تقدّماً عقليّاً كالجسم على الحيوانيّة.

(٦) اللاّزم العامّ للماهيّة ما لا يمكن رفعه عنها في الوجود ولا في الوهم، كزوايا المثلّث. فإنّ فاعلاً لو أراد فِعلَ مثلّث دون زوايا ثلاثة لا يمكنه، لأنّه محال. والزوايا مع هذه، ليست داخلةً في حقيقة المثلث فإنّه لا بدّ وأن يتحقّق المثلّث أوّلاً حتى يكون له زوايا.

كل ما يلزم الماهيّة في موضوع لذاتها يلزمها في جميع المواضع. وما يكون لازماً للماهيّة لخصوصها، لا يلزم أن يطّرد فيما يشاركها في أمر عام. فحرارة النّار لخصوص حقيقتها، لا لجرميّتها، حتّى يكون كلّ جرم حارّاً.

(٧) ونحن إذا حكمنا على كلّ واحدٍ من جزئيّات شيء فإنّما نحكم بما يلزم على الماهيّة لذاتها لا بناءً على استقراء الأشخاص؛ والاستقراء هو الحكم على كلٍّ بناءً على مشاهدة كثير من جزئيّاته؛ وهو ضعيف إذْ ربما يخالف حكم ما لم يعهد حكم ما عهد.

(٨) والكليّ هو الذي لا يوجد في الأعيان، فإنّ الموجود في العين حصلتْ له هويّةٌ لا إمكان للشركة فيها. والكلي ما لا تمتنع فيه الشركة لذاته. ولا يتصوّر تعدّد الكلّي إلاّ مع لواحق زائدة على الماهيّة، إذ لا بدّ من الفارق بين الشّيئَينِ، ولا يقع الافتراق بما به الاشتراك.

(٩) وكلّ شيء حلّ في غيره على وجه يكون شائعاً فيه بالكلّية لا كالماء في الكوز سمّيناه هاهنا بـ «الهيئة»، وما هي فيه محلّه. كلّ شيء لا يتصوّر حلوله في غيره بالكلّية خصّصناه هاهنا باسم «الجوهر». كلّ جوهر يمكن فيه تقدير طول وعرض وعمق، فهو «جسم». والأجسام كلّها لمّا تشاركت في الجسمية، وهي مفترقة، فافتراقها بالهيئات.

(١٠) والجسم لا ينقسم إلى ما لا ينقسم في الوهم، إذ لو كان له جزء غير منقسم، لكان الواحد المحفوف بالستّة، إن حجب بينها عن التماسّ، فقد لاقى كلّ واحد منها، منه شيئاً غير ما لقيه الآخر، فانقسم ما لا ينقسم وهو محال؛ وإن لم يحجب فيلقى كل واحد من الستّة كلّ الوسط وكلّ الآخر وهو التداخل المحال؛ ولا يبقى في العالم حجم لتداخل الأطراف في الوسائط.

الهيئة لا تنتقل من جسم إلى الآخر فتستقلّ بالحركة فيما بينهما، فيلزمها طول وعرض وعمق، لاستقلالها بالجهات، فصارت جسماً، وكانت هيئةً وهذا محال.

(١١) الجسم يجب أن يتناهى، وكذا كلّ عدد موجود آحاده معاً مع ترتيب ما؛ فإنّ الامتداد الغير المتناهي أو الصفات المترتّبة الغير المتناهية والعلل والمعلولات ـ لو أمكنتْ ـ كان لنا أن نحذف عشرة أذرع أو عشرة أعداد من وسط السلسلة الغير المتناهية، ونوصل بين طرفَي المحذوف، فنأخذه دون المحذوف سلسلةً ومعه أخرى، ونطبق في العقل بين السلسلتَينِ، فلا بدّ من التفاوت، وإلاّ يستوي الزائد مع الناقص وهو ممتنع قطعا، والتفاوت لا يقع في الوسط للوصل المذكور فيقع في الطرف، فالنّاقص تناهى، والزائد زاد عليه بالمتناهي، وما زاد بمتناهٍ فهو متناه. أمّا إذا اجتمعت الآحاد دون الترتيب، أو التّرتيب دون اجتماع الآحاد فلا تلزم النهاية.

(١٢) والجسم يلزمه لضرورة النهاية شكلٌ ومقدار. ولو لزمه ذلك للماهيّة الجرميّة لاسْتوتْ مقادير الأجرام وتماثلتْ أشكالها حتى مقدار الكلّ والجزء

وشكلهما، وذلك ممتنع، فلا بدّ ممّن يفيدها المقدارَ والشّكلَ والهيئةَ؛ ولا يكون جرماً، وإلاّ عاد الكلام إليه، فتعيّن أن يكون المفيد خارجا عن الأجسام.

(١٣) والأجسام متعدّدة فتحتاج إلى مخصّصات لها، ولو اقتضتْها ماهيّة الجرميّة لاتّفقتْ. فلا بدّ فيها أيضاً من مفيد ليس بجسم ولا جسمانيّ؛ وهذا يدلّك على وجود الصّانع.

(١٤) والحركات مختلفة بالجهات. والجهات مختلفة، ولها وجود، إذ لا تقع الحركة والإشارة إلى العدم، ولا يتصوّر أن يكون ما منه الجهة منقسماً؛ إذ لو انقسم لوقعت الإشارة والحركة في العدم، وهو محال؛ فمحدّد الجهة ليس من جسمَينِ فصاعداً، وإلاّ يمكن ايتلافهما وانقسامها، فينقسم ما منه الجهة وهو محال. وليس المحدّد بجرم واحد قاصر على طرف، فإنّه لا يتحدّد به إلاّ طرف واحد، وكلّ امتداد له طرفان. ولا تختلف الجهات بجسم واحد متشابه الأجزاء، إذْ لا أولويّة لعلوية بعض وسفليّة الأخرى. فينبغي أن يكون بجرم واحد، لا من حيث هو واحد، بل يكون محيطاً يحدَّد القرب منه بالمحيط والبُعد بالمركز. والمحدّد لا تنخرق أجزاؤه، لِما قلنا، فلا يتحرّك على الاستقامة ولا ينمو؛ وإلاّ يلزم أن تكون وراءه جهة فلا يكون هو المحدّد، وهو محال؛ فهو يتحرّك على الوسط.

وما يتحرّك على الاستقامة إن كان بخصوصيّةٍ تقتضي الحركة عن الوسط فتلزمه الحرارة؛ أو إلى الوسط فتلزمه البرودة؛ والذي يقبل الانقسامَ والتّشكلَ وتركَه بسهولة فهو الرّطب؛ والذي يقبل ذلك ويترُكُه بصعوبة فهو يابس. فحصلتْ أربعة أقسام: حارّ يابس هو النّار؛ وحارّ رطب هو الهواء؛ وبارد رطب هو الماء؛ وبارد يابس هو الأرض وهو في المركز، والمركز في الأسفل. والمحيط منه العلو في جميع الجهات.

(١٥) واعلم أنّك لمّا شاهدتَ صيرورة الماء بالحرارة هواءً فإن كان بطل الماء بجميع أجزائه، وحصل الهواء فما صار أحدهما الآخر، أو بقي الماء بحاله في حالة الهوائيّة فيكون الشيء ماءً وهواءً في حالة واحدة، وذلك محال؛ فإذنْ صيرورة الماء

هواءً هو أن يكون الجوهر الذي فيه صورة المائيّة زالت عنه وحصلت فيه صورة الهوائيّة، وذلك المحلّ يسمّى «الهيولى» وهي أحد جزئَي الجسم، وامتدادٌ ما جزؤه الآخر؛ إذ لا يعقل الجسم إلا بامتدادٍ وحامله. والعناصر هيولاها مشتركة. وترى صيرورة الهواء ماءً ممّا تركب الزجاجات الّتي فيها الجمد، والطّاسات المكبوبة عليها من القطرات. وليس ذلك لرشحِ البارد، فإنّ الحارّ أولى بالرّشح، ولم يعهد منه ذلك. والهواء ينقلب ناراً على ما رأيت من حال النفّاحات والقداحات. والسّحاب إنّما هو لتكاثف الأبخرة أو الهواء؛ فإذا تمّ البرد فينزل مطراً إن لم يشتدّ البرد الذي يُصيّرها ثلجاً. وهو على ما يرى في الحمّامات من صعود الأبخرة وتكاثفِها ببردٍ ونزولِها ماءً.

(١٦) وكلّ جسم له مكان يميل إليه بخصوصه. و«المكان» هو السّطح الباطن للجرم الحاوي، المماسّ لسطح الظاهر من الجرم المحويّ، فإنّ المكان من شرطه أن يكون فيه الجرم، ويجوز أن ينتقل عنه، ولا يجتمع فيه ذوا مكانٍ. ويختلف بالجهات. والمحدّد إن لم يمتلئ من الأجسام فيحصل للعدم الذي هو حشوٌ، مقدارٌ، له نصف وثلث، وهو محال. أو يفرض مقادير قائمة لا في جسم وهو ممتنع؛ إذ المقدار لو استغنى عن المحلّ ما افتقر من جزئيّات حقيقيّةٍ إليه شيء كما هو ظاهر.

وإلى كريّة المحدِّد وما معه أشير في الكتاب الإلهي، حيث قيل في السّماء: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾(١)؛ إذ غير الكريّ تلزمه الزاوية والفرجة.

وهذه الأربعة تحصل من امتزاجها المواليد الثلاث: المعادن والنبات والحيوان. وقد سمعت في الكتاب أنّ البارئ تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾(٢) أو ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(٣) وكونه من الطين يوجب أن يكون من ماء وتراب. وصلصاليّتُه صورتُه للهوائية، والحمأيّةُ للنّاريّة.

---

(١) سورة ق، الآية: ٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

فصل [٣] ـ [في إثبات تجرّد النّفس]

(١٧) أنت لا تغيب عن ذاتك، وتغفل عن أعضائك وهيئاتها وجميع أجزاء البدن، فمنها ما شاهدت بقاء المدرَك من ذاتك دونها، مثل اليد والرِّجل ونحوهما، ومنها ما لا تعرفها إلاّ بمقايسة أو تشريح، ولا يخطر ببالك إلاّ بعد حين. فذاتك معقولة لك دون أجزاء بدنك وهيئاتها. فلو كان شيء منها جزء ذاتك فما عقلت ذاتك دونه، إذْ لا يُعقَل الشيء دون أجزائه، فأنت غير هذه الأشياء.

(١٨) مرة أخرى نقول: عقلتَ الجسم المطلق الواقع بمعنى واحد على أجسام كثيرة مختلفة المقادير والأوضاع. فلو كانت صورته في جرم أو بعض هيئاته متقرّرة فيه، لزمها وضع خاصّ ومقدار، لضرورة المحلّ، فما طابقت المختلفات فيهما. فلمّا طابقت، فليست بمنطبعة فيه. فمحلّها منك ذات، ليست بجرم ولا هيئة فيه، ولا يشار إليها لتبرّئها عن عوالم الجهات.

(١٩)**مرة أخرى نقول**: أدركتَ الواحد المطلق ـ وهو شيء ما لا ينقسم أصلاً ـ فلو كانت صورته في جرم أو هيئة فانقسم بالضرورة لانقسام محلّه. فما كنتَ عقلت الواحد الغير المنقسم أصلاً. فلمّا عقلتَ فالعاقل منك بريءٌ عن الأبعاد ولوازمها. وسمّاه الحكيمُ «النّفسَ النّاطقة»، والصّوفيُّ «السّرَ» و«الرّوحَ» و«الكلمةَ» و«القلبَ»؛ فشرح الكلمة أنّها ذات ليست بجرم ولا بجرميّة، قائمةٌ لا في محلّ، مدرِكةٌ، لها التصرّف في الجرم.

(٢٠) والكلمة لا توجد قبل البدن فإنّها إن وجدتْ قبله فإمّا أن تتكثّر دون مميِّز، وهو محال، ولا مميِّز قبل البدن من الأفعال والانفعالات والإدراكات، وهي من نوع واحد ولازم الحقيقة يتّفق في أعدادها؛ وإمّا أن تتّحد، فإن كانت واحدةً ودبّرتْ جميع الأبدان فللجميع أنانيّة واحدة، وكان ما علم واحدٌ معلوماً لغيره وكذا مشتهاه، وليس كذا. وإن انقسمت بعد الوحدة فهي جرميّة، وقد عرفت استحالة هذا.

والشواهد ممّا يدلّ على عدم جرميّة الكلمة من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا

ﭐلنَّفۡسُ ﭐلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾[2] وقوله: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[3] وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾[4] وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[5] وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾[6] وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾[7] وقوله ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[8] وغير ذلك ممّا لا ينحصر. وغير متصَّور حضور ذي الأبعاد الجرميّة وهيئاتها عند الله تعالى أو ملاقاته.

ومن السّنة قول صاحب الشريعةعليه السلام: «أبيتُ عندَ ربّي يُطعِمُني ويَسقيني» وقوله عند وفاته «الرفيق الأعلى» وسُئل بعض المشايخ من أهل التّصوّف عن الصّوفي فقال: «من كانَ معَ الله بِلا مَكانٍ» وقول الجنيد حين سُئل عن الحقيقة:

وغنّى لي من قلبي وغنّيتُ كما غنّى ... وكُنّا حيثما كانوا وكانوا حيثما كُنّا

وقول أبي طالب المكّيّ في حقّ أستاده الحسن بن سالم: «إنّه طُوي عنه المكان» وفي حقّ النّبيﷺ: «إذا لبس لبسةً رُفع عنه الكونُ في المكان». قال الحلاّج في الطواسين أيضاً في حقّ النبيﷺ: «إنّه غّمض العينَ عن الأين» ويستحيل على الجرم وهيئاته وذي المكان أن يُرفَع عنه المكان، أو يغمض عن الأين. وقول الحلاّج: «تبيّن ذاتي حيث لا أين» وقول بعضهم: «طلبت ذاتي في الكوانَينِ فما وجدتُ» وقول الحلاج: «حسب الواحد إفراد الواحد له» وقوله في حقّ الصوفي: «إنّه وحدانيّ الذّات لا يَقبَل ولا يُقبَل». وكل جرم منقسم، وكذا هيئاته، والواحد لا ينقسم. وفي كلام أبي يزيد من هذا كثير وكلماتهم في ذلك لا تنحصر.

فصل [٤] ـ [في الحواسّ الظّاهرة والباطنة]

(٢١) وللكلمة نسبةٌ إلى القدس، وأخرى إلى البدن. وقد رُتِّبت للإنسان

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٣) سورة القمر، الآية: ٥٥.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٤.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٨.
(٦) سورة القيامة، الآية: ٣٠.
(٧) سورة القيامة، الآية: ١٢.
(٨) سورة النجم، الآية: ٨.

ونحوه حواسٌّ: خمسةٌ ظاهرة، وهي: اللمس والذوق والشمّ والسمع والبصر؛ وخمسةٌ باطنة:

الأوّل يسمّى «الحسّ المشترك» وهو قوّة في مقدّم الدماغ. تجتمع عنده مُثُل جميع المحسوسات، فيدرِكها، ويُدرَك بها أنّ هذا الأبيض هو هذا الحلو الحاضرَيْنِ؛ والحسّ الظاهر متفرِّد بأحدهما، والحاكم لا بدّ له من حضور كلَيْهما. وما يُرى من النقطة الجوّالة بسرعةٍ دائرةً فإنّما هي لتأدّي الصورة من البصر إليها، وانضمام الإبصار الحاضر إليها، فإنّ البصر لا يدرك إلاّ المقابل، والمقابل نقطة لا غير، وكلما يرتسم في الحسّ المشترك يشاهَد.

والثاني «الخيال»، وهو قوّة في آخر التجويف الأوّل من الدماغ، هو خزانة الحسّ المشترك لجميع صوره.

والثّالث قوة في التّجويف الأوسط هي الحاكمة في عُجم الحيوانات وهي التي تدرِك في المحسوسات معانٍ غير محسوسة كإدراك الشاة معنىً في الذئب موجِباً للهرب فيسمّى «الوهم».

وتخدمه فيها قوّةٌ [**وهي الرابعة**] بها التركيب والتفصيل، فتركّب الحيوانَ من أعضاء مختلفة أنواع الحيوان، وتفرّق أعضاءَ حيوان واحد، وتنتقل من الشيء إلى ضدّه وشبهه، وتحاكي المدرَكات وأحوال المزاج، سمِّيتْ «متخيّلة» وعند استعمال العقل «مفكّرة».

والخامس قوّةٌ في التجويف الأخير هي حافظةٌ وخزانةٌ لأحكام الوهم سمِّيتْ «حافظة».

وعُرِف تغايرُ هذه القوى ببقاء بعضها مع احتلال البعض وعُرفتْ مواضعُها بلزوم اختلالها من اختلال تلك المواضع.

(٢٢) وفي الحيوان قوّة محرّكة، وله قوّة نزوعيّةٌ باعثةٌ على التحريك، مُذعنة للمدرَكات: منها «شهوانيّةٌ جالبة للملائم، و«غضبيّةٌ دافعة للمكروه.

وفي الحيوان جرم لطيف حارّ يحصل من لطافة الأخلاط مبدؤه القلب، سماّه

الحكماء «الرّوحَ» وهو حامل جميع القُوى، وهو واسطة بين «الكلمة» والبدن فإنّ عضو الإنسان قد يموت مع بقاء تصرّف الكلمة في البدن لِسُدّة منعت هذه الرّوحَ عن النّفوذ إليه. وهو غير الرّوح المنسوب إلى الله تعالى أعني الكلمة التي فيها قال الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[2].

فصل [٥] ــ [في الجهات العقلية، ووحدة الواجب وعلمه، وقاعدة «الواحد» وقدم العالم]

(٢٣) الجهات العقليّة ثلاثة: واجب وممكن وممتنع. فالواجب ضروريّ الوجود، والممتنع ضروريّ العدم، والممكن ما لا ضرورة في وجوده وعدمه. الممكن يجب بغيره ويمتنع بغيره. والعلّة هي الموجِبة، وهي ما يجب بها وجودُ غيرها. والممكن لا يصير موجوداً لذاته؛ إذ لو اقتضى الوجودَ لذاته لكان واجباً لا ممكناً؛ فلا بدّ له من مرجِّح للوجود على العدم. والعلّة إذا تمّتْ وجب أن يحصل بها المعلول كانت ذات وحدانيّة أو ذات أجزاء. وكلّ ما به يصير الشيء علّةً فله مدخل في العلّية كان إراةً أو وقتاً أو معاوناً أو محلاً قابلاً أو غيرها. وعدم المعلول يتعلّق بعدم العلّة بجميع أجزائها أو بعضها.

(٢٤) ولا يجوز أن يكون شيئان هما واجبا الوجود، فإنّهما إن اشتركا في وجوب الوجود فلا بدّ من فارقٍ بينهما، فيتوقّف وجود أحدهما أو كلَيْهما عليه، وما يتوقّف على شيء فهو ممكن. ولا يتصوّر أن يكون شيئان ليس بينهما فرق، فإنّهما واحد حينئذ.

(٢٥) والأجسام والهيئات كثيرةٌ، وواجب الوجود لا يتصوّر إلاّ واحداً، فهي ممكنة. وجميع الممكنات تحتاج إلى مرجّح، وهو واجب الوجود سبحانه. وواجب الوجود ليس له جزءان، فيتوقَّفَ وجوده عليهما، فيكونَ ممكناً. ولا

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

يتصوّر أنْ يكون الجزءانِ واجبَينِ أيضاً، لِما قلنا أنْ لا واجبَينِ. والصّفة لا تكون واجبةً، وإلاّ ما احتاجت إلى محلّها. وواجب الوجود لا يستكمل بصفة زائدة، فيكونَ ناقصاً في نفسه، فوهب الكمال لنفسه. وواهب الكمال أكملُ من قابله، فذاته أشرف من ذاته لأنّها الفاعلة والقابلة وهو محال.

(٢٦) وأنت لا تشك في أنّك أدركت ذاتك بحيث لا تتصوّر الشركة فيها. فلو كانت صورةً عقلية لكانت كلّيةً فإذنْ إدراكها ليس بصورة فإدراكها لذاتها هو أنّها ذاتٌ ليست في المحلّ، مجردةٌ عن المادة، غير غائبة عن ذاتها. وما غاب عنها، ولا يمكنها استحضارُ ذاتِه فيستحضر صورتَه. وواجب الوجود، تعالى عن الصورة، وهو مجرّد عن المادّة بالكلّية، غير غائب عن ذاته؛ فَلا يَعزُبُ عن عِلْمِه مِثقالُ ذرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ[1]، وله الجلال الأرفع والكمال الأعلى. وإدراكه لذاته حياته. وقدرته علمه؛ إذ لا يحتاج هو إلى تحريك آلات كما قال أبو طالب المكي رَحِمَهُ الله: «إنّ مشيئته قدرته وما يدرك بصفة يدركه بجميع الصفات إذ لا اختلاف ثَمّ» يشير إلى الوحدة المطلقة. وقال حكيم العرب عليّ بن أبي طالب (كرّم الله وجهه): «لا يُوصَفُ بِالصّفاتِ» في كلام له طويل. والعلم لمّا كان كمالاً للموجود من حيث هو موجود ولا يوجب التكثّر في ذاته وجب له؛ إذْ لا يمكن عليه شيء، فيكونَ فيه جهة إمكانية.

(٢٧) طريقٌ آخر: واجب الوجود لا يتصوّر أن يكون وجوده غير ماهيّته؛ فإنّ الوجود إذا أضيف إلى الماهيّة يكون عرضاً، فلا يجب بذاته، وإلاّ ما احتاج إلى الإضافة. ولا يجوز أن تكون الماهيّة علّةً لوجود نفسها، إذ العلّة لا بدّ وأنْ تتقدّم على المعلول بالوجود، فيلزم أن تكون الماهيّة قبل وجودها موجودةً، وهذا محال. والأجسام والهيئات ليست ماهيّتها نفسَ الوجود؛ فإنّ الوجود بمعنى واحد يقع على الجوهر والهيئات مع الاختلاف في الحقيقة، فهي ممكنة الوجود.

---

(١) في سورة سبأ، الآية: ٣، هكذا: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفي سورة يونس، آية ٦١ هكذا: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

وواجب الوجود لا يشارك الأشياء في جزء حتى يفارقها في جزء آخر، لوحدته، ولا محلّ له، ولا مقاوم، فلا ضدّ له باصطلاح الخاصّة والعامّة، ولا ندّ له. وقد قال أبو طالب المكّيّ في كتاب «قوت القلوب»: «إنّ كينونته ماهيته» وفي الحديث ورد في بعض الدعوات «يا كان يا كينان».

(٢٨) الواحد من جميع الوجوه لا يتصوّر أن يوجب بواحد من غير واسطة؛ فإنّه لو صدر عنه اثنان من غير واسطة، فاقتضاء أحدهما غير اقتضاء الآخر، ففيه جهتان؛ يقتضى بإحداهما إحداهما، وبالأخرى الأخرى فليس بواحد.

(٢٩) وإذا كان الأول موجباً ومرجّحاً لجميع ما سواه، والمرجّح دائم فيدوم التّرجيح، وإلاّ يتوقّف جميع الممكنات على غيره، وليس قبل جميع الممكنات غيره، ولا وقت ولا شرط ولا داعية ليتوقّف عليه، كما في أفعالنا. ولا يتصوّر في العدم حالٌ يكون الأولى به فعلُ شيء بعد أن لم يكن. وكل ما يسنح له، يعود الكلام إليه من إرادة وحال. ولمّا أمكنك أن تقول تحرّك الإصبع فتحرّك الخاتم ولا تقول تحرّك الخاتم، فتحرّك الإصبع؛ فحركة الخاتم تابعة لحركة الإصبع، وهي المتقدّمة في العقل لا بالزمان، ويسمّى نحوه «التقدّم بالذات». فلو دامت المتقدّمة دامت المتأخّرة.

فصل [٦] ــ [في قاعدة إمكان الأشرف]

(٣٠) إذا وجد الممكن الأخسُّ يكون الأشرفُ قد وجد من واجب الوجود، وإلاّ يكون اقتضى بجهة الوحدانية الممكنَ الأخسَّ فإذا فرض الأشرفُ فيقتضي جهةً أشرفَ ممّا عليه واجب الوجود، وهو محال. ولمّا وجدت الكلمة، والماهيّات المجرّدة عن الأجرام وتصرّفاتِها بالكلّية، أشرفُ منها، فتجب قبلها، وهي «العقول» باصطلاح الحكماء و«الكرّوبيّون» و«السّرادقات النّوريّة» بلغة الصوفيّة والشريعة.

فصل [٧] ــ [في الصّادر الأوّل]

(٣١) الأوّل الوحدانيّ لمّا لم يوجب غير واحد فأوّل ما يوجبه ليس بجسم؛ فإنّ الجسم فيه هيولى وصورة ومقادير وخصوصيات مختلفة، فلا يصدر عنه بلا

واسطة؛ فأوّل ما يجب به جوهرٌ عقليّ وحدانيّ هو الأمر الأول، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[(١)] وهو نوره الأعلى.

فصل [٨] ـ [في الجود والغنى، وحركات الأفلاك]

(٣٢) «الجود» إفادة ما ينبغي لا لِعوضٍ؛ فمن أعطى لمدحٍ أو ثناء أو لتخلص عن مذمّة فهو معامل. و«الملِك» الحق تعالى، ما له ذات كل شيء. و«الغنيّ» ما لا يتوقّف ذاته، ولا كماله، على غيره. فواجب الوجود والعالي في الجملة، لا غرض له في السّافل؛ إذْ لا بدّ وأن يكون الغرض أولى بالفاعل وجوده، وما يكون الأولى به فعلُ شيء إذا لم يفعل فقد عَدِمَ الأولى، فكماله يتوقّف على الغير، فتعالى واجب الوجود عن هذا.

(٣٣) واعلم أنّ الفلك ليست حركته طبيعيّة، إذ المتحرّك بالطبع يقصد الملائمَ فإذا وصل، وقف. وكل نقطة يقصدها الفلك يفارقها؛ فليست حركته طبيعيّةً بل هي إراديّةٌ ولا بدّ للمتحرّك بالإرادة من غرض، وليس غرضه أمراً شهوانياً ولا غضبياً؛ إذْ لا زيادة فيه ولا مزاحم له، ولا أن يحمده السافل، فإنّه كمالٌ مظنون فلا يبنى عليه أمرٌ واجب الدوام، وهو الحركة. كيف والسّافل لا نسبة له ـ معتبرة ـ إلى العالي. وليس مطلبه أمراً جزئيّاً؛ فإنّه إنْ حصل، أو قَنَطَ فوقف على التّقديرَينِ؛ فهو أمر كلّي فلها إرادة كليّة وعلم كليّ وكلمةٌ ناطقة فحركتها للتّشبه بمعشوق، ونفس بعض الأفلاك وجرمه ليستا بمعشوقَينِ لبعض، وإلاّ لتشابهت الحركات. وليس المعشوق واحداً وإلاّ لتشابهت الحركات أيضاً. فلكلٍّ معشوقٌ خاصّ هو علته التي تمدّه بنورها، وهي المفارقات بالكلية ـ أعني الكرّوبيّين ـ فتفيض عليه الأشواق واللذّات الغير المتناهية. وللكل معشوقٌ مشترك هو الأوّل؛ فلذلك تشابهت الحركات في دوريّتها. وتحرّكت الأفلاك لوجدة ولذّة وتشبّهتْ أجرامها بالعلل؛ فإنّها لو ثبتت على وضع بقي الآخر بالقوّة أبداً. ولم يمكن الجمع بين

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

الجميع فاستحفظت بالتّعاقب، تشبّهاً للمتجدّد، بدوام تجدّده بالدّائم.

فالعوالم ثلاثة: عالم العقل وهو الجبروت، وعالم النفس والكلمة وهو الملكوت، وعالم الجرم وهو المُلك. والجرم مطيع للنفس، وهي للعقل، وهو لمُبدعه.

فصل [٩] ـ [في كيفية صدور العقول والأفلاك]

(٣٤) ولمّا ثبتت ذوات مجرّدة بالكلية هي معشوقات للأفلاك، فلا تتصوّر كثرتها ولا كثرة الأفلاك عن أولّ، فوجب بالأوّل واحدٌ. والأفلاك أيضًا لم تجب بواحد؛ إذ لكلّ فلكٍ؛ معشوقٌ خاصّ يكون علّته. فالعقول ينبغي أن تكون واحداً عن واحد سلسلةً؛ وليس في كلّ واحد من الجهات، إلاّ أنّه واجبٌ بالأوّل، وله نسبة إليه، وممكن في ذاته، فاقتضى بما يعقل من نسبته إلى الأول شيئاً أشرفَ، وهو عقلٌ آخر. وباقتضاء ماهيته وإمكانه جرماً ونفساً، فكانت تسعة أفلاك، لها تسعة من المبادئ العقليّة ومع فلك القمر، عاشر، منه العالم العنصري. وله معاونات من حركات الأفلاك مُعِدّات للعناصر لاستعدادات مختلفة فتختلف استعداداتها للكمالات من الواهب. وهذا العاشر سمّاه الحكماء «العقل الفعّال»، وهو «روح القدس» وهو موجب نفوسنا ومكمّلها، ونسبته إلى كلماتنا كنسبة الشمس إلى الأبصار. وهو الذي قال لمريم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[1] وهو واهب نوع المسيح.

(٣٥) كل حادث يستدعي مرجّحاً حادثاً، أو جهةً لها مدخل في الترجيح حادثةً. ثم يعود الكلام إلى المرجّح الحادث فينبغي أن يتسلسل إلى غير النهاية. ولمّا لم يتصوّر أن تكون العلل الغير المتناهية مجتمعةً فيجب أن تكون مترتّبةً حادثةً غير مجتمعة لا تنصرم، وإلاّ عاد الكلام إلى ما هو المبدأ؛ والحادث الذي يجب تجدّده إنّما هو الحركة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٩.

فصل [١٠] ـ [في الأفلاك وحركاتها وأنّ العقول لا تتغيّر]

(٣٦) والمستقيمات لها نهاية، فيجب أن تكون المستديرات. والزمان مقدار حركتها، وهي الأفلاك. والعقل الفعّال تكثّرُ معلولاته إنّما هي لاستعدادات مختلفة لحركات مختلفة. والفاعل المتشابهة أحواله يجوز أن تختلف آثاره لاختلاف القوابل. ولا تتغيّر العقول، وإلاّ أدّى تغيّرها إلى تغيّر واجب الوجود وذلك ممتنع. وليست علوم المفارقات زمانيّة فإنّ عِلم ما سيكون يتغيّر إذا وقع الشيء أو زال. فتجدُّد الأشياء من الواجب لتجدّد الاستعدادات. وما بنى الجاحدون كلامهم في وجوب نهاية الحركات إنّما هي اجتماع حركاتٍ معدومة، واجتماعها محال فلا كلّ لها في الوجود؛ وحال ماضيها كحال مستقبلها، فبطل مُعتصَمهم.

فصل [١١] ـ [في بقاء النّفس، والتّناسخ، واللذة والألم، وعذاب الأشقياء ولزوم إرسال الرسل]

(٣٧) الكلمة لا تنعدم لبقاء موجِبها. ثم انتفاؤها إمّا أن يكون لانتفاء شرط، وأخرى ما يكون شرطها كمالها، فكانت عديمة الكمال لا يتصوّر استمرار وجودها، وإن كانت متصرّفة في البدن، إذ هي غير منطبعة؛ أو لوجود مانع: وليست مكانية، ولا حالّة في شيء حتى يضادّها ويزاحمَها شيء فلو كان لها مانع مُبطِل لكانت هيئاتها الرديّة فذات الرّذائل ما تقرّر وجودها، وليس كذا. فلا فارقَ بين مفارقة البدن وقبلها إلاّ قطع علاقة عرضيّة. ولا يبطل الجوهر ببطلان الإضافات؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1] وقال ﷺ: «إنكم لا تموتون وإنّما تنتقلون من دار إلى دار» وما أحسن ما قال عليّ عالم العرب: «النّاس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا».

(٣٨) واعلم أنّ التّناسخ محال، إذ المزاج يستدعي من الواهب كلمةً، فلو قارنْته الكلمة المستنسَخة، فكان في حيوان واحد ذاتان مدركتان مدبّرتان، ذلك محال.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٣٩) واعلم أنّ اللذّة هي إدراك ما وصل من كمال المدرَك وخيرِه إليه من حيث هو كذا، والألم هو إدراك ما وصل من شرّ المدرَك وآفتِه إليه من حيث هو كذا. وقد يصل اللذيذ والمكروه للشيء فلا يتألم ولا يتلذّذ لمانع، كمَنْ به خدرٌ فضُرِب أو مرض فهُجر الطّعامَ اللذيذ. ولكلٍّ من القُوى لذّةٌ على حسب كمالها، وألمٌ على حسب شرّها. فكمال الكلمة الإنتقاش بالوجود ـ مِنْ لدنْ مسبب الأسباب إلى آخر الوجود ـ، ومعرفة النظام والمعاد وكما أنّ الكلمة وإدراكها ومدرَكاتها أشرفُ وألزم وأقوى وأكثر من الحواسّ وكمالاتِها فتزدادُ لذّاتُها على لذّاتها بحسبه؛ إلاّ أنّ اشتغال الكلمة بالبدن يمنع عن التلذّذ، فإذا فارقتْ، تلذّذتْ إن استكملتْ، أو تألّمتْ سيّما إن كان لها جهل مضادّ ـ وهو عدم اعتقاد الحق واعتقادُ نقيضه ـ، وهذا ممّا لا يزول.

(٤٠) ليت كان تعذب الأشقياء بالنار الجرمانية، فإنّ الذي ينبعث من ذات النفس من البُعد عن مُبدِعها كما قيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1]، والملكات الرديّة والشوق إلى عالَم الجرم مع سلب الآلات ـ نعوذ بالله ـ ألمٌ لا يناسبه ألم ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. والمنكر للذّات الحقيقيّة، كالعِنّين إذا أنكر لذّة الوقاع.

(٤١) واعلم أنّ الحركات توجب الكائنات والكل بالقدر السابق. والنفس هي حاملة عذابها معها، لا بأن ينتقم منها فيقال كان ابتلاؤها بالمعاصي للقدر فعذابها ظلم؛ بل هو كما قيل: «إنمّا هي أعمالكم ترد إليكم» وقال تعالى: ﴿ بِٱلْبَصَرِ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[2] وقوله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

(٤٢) واعلم أنّ البارئ تعالى أشدّ مبتهج لذاته، لأنّه أشدّ كمالاً وأعظم مدرِك ومدرَك بأتم إدراك، تعالى، عاشق لذاته، معشوق لذاته ولغيره.

(٤٣) واعلم أنّ النّاس يحتاجون إلى من يضبط أمورَ بيوعهم وأنكِحَتهم

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

وجناياتهم ويذكّرهم ربّهم. ولا يذعن بعضهم لبعض فيجب من العناية الإلهية وجودُ شخص في كل عصر مأمورٍ بإصلاح النوع، مؤيّدًا بآياتٍ تدلّ على أنّه من عند الله تعالى. فيفرض عليهم قربات الله، حتّى لا يكونوا كالبهائم يأكلون ويتمتّعون، فيكونوا ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١].

فصل [١٢] ـ [في كيفية الاطلاع على المغيبات والمنامات]

(٤٤) ما تَرى من الأفعال الخارقة للعادة من التحريكات والتسكينات وإنزال العذاب والاستسقاء وغيرها من إخوان التجريد، إنْ صعب عليك التّصديقُ، فاعلم أنّ البدن أطاع كلمة الله مع عدم الانطباع؛ ورأيت تَسخُّن البدن وإنْ كان بارداً بغضب النفس؛ وشاهدتَ تأثير الأوهام حتّى أنّها أسقطت الرجالَ عن حيطانٍ مرتفعة قليلةٍ العرض؛ فالكلمة إذا تمَّ ذكاؤها، أو تأيّدتْ بالقدس، فلا عجب من أن تزداد قوتها، بحيث تكون كأنّها نفس العالم. وإدراك العلوم دون التَّعلُّم الكثير ليس بممتنع بعد ما شاهدتَ تفاوت أشخاص نوعك في الذّكاء: فمِنْ بليدٍ غير منتفع بالفكر أبداً، ومِنْ شديد الحدس يحدس في كثير من المسائل؛ وليس هاهنا حدٌّ يجب الوقوف عنده، فيجوز أن تكون كلمة قويّة الجوهر تدرك المعقولات في زمان قصير، لكمال جوهرها وقوّتها وقربها من مبدئها، كما قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾[٢].

والإخبار بالكائنات ليس ببعيد، فإنّ كلمات الأفلاك مطّلعة على لوازم حركاتها الآتية والسابقة، ولا حجاب بين كلماتنا وبينها، إلاّ العلاقة البدنية حتى لو ضعفت الموانع أحياناً، كما في النوم لبعض الناس، أو لبعضهم في أمراض موهنةٍ للحواس، أو بالرياضات المُخِلة بالقوى الباطنة الموهنة للمتخيلة، فإنّها المشوّشة دائماً لقوة النفس بالذكاء، فتنتقش النفس ـ أعني الكلمة ـ بأمر قدسي فيسري إلى عالم التخيل.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥ ـ ٦.

وربما يلمع [الأمرُ القدسيّ] في الحسّ المشترك، فيرى مشاهدةً في نوم أو يقظة صورةً جميلة أو يسمع خطاباً حسنَ النظم عجيب السياق، أو تظهر صورةُ الغيب مشاهدةً. ولمّا كانت الحواسّ الباطنة ممكناً توهينُها، دون إبطالها بالكلية، فقال القائل الحق (سبحانه وتعالى): ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[1] فإنّ الإنسان ما دام في هذا العالم لا ينقطع عنه وسواس الخنّاس الذي سلّطه الله عليه. والوهم هو إبليس لم يسجد لخليفة الله وكلمتِه حين سجدتْ ملائكة القوى كلها ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]؛ ولهذا كلّ ما يحكم به العقل من الأمور المجرّدة عن المادة ينكره الوهم، وهو إلى يوم البعث من المنظَرين؛ فإذا خرج الإنسان من القبر حضر أجله؛ وقد قال الشارع عليه السلام: «ما مِنكمْ منْ أحَدٍ إلاّ ولَهُ شَيْطان». وكما أنّ الخيال يأخذ من الحسّ المشترك، قد تستولي المتخيلةُ على الحسّ المشترك عند فترة الحواسّ عن اشتغال الحسّ المشترك، أو اشتغال النّفس عن استعمال المتخيّلة في الأفكار، فتُلوّح الصّورَ في الحسّ المشترك فلهذا ما يرى من الجن وغيرهم. والمشاهد لو غمض عينه رآه مع الغموض، فهو من سبب باطن.

فصل [١٣] ـ [في حكمة خلق الهيولى والأفلاك وحركاتها وحكمة العناصر وكيفية أماكنها]

(٤٥) ألمْ ترَ ـ يا عارف ـ إلى ربّك أنّه لمّا كان وقوع جميع الممكنات دفعةً محالاً ـ وكان كلّ ما يقع من الصور والهيئات متناهية بالضرورة، لِتناهي الأجرام، والكلمات كانت ضروريّةً لها الأبدانُ كما سبق؛ ولو قدّر الغير المتناهي واقعاً دفعة لكان يبقى على الإمكان ما لا يتناهي، وكلمات الله وجب أن لا تتناهى، كما قال الله تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[3]. ولمّا كان الفاعل ذا قوّة غير متناهية على الفعل، كيف خلق هيولى، لها

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

قوّة القبول إلى غير النهاية. ولمّا كان لا يتصوّر تغيّر المبادئ وَجدت أجسام ربّانية متحرّكة لغرض علوي، يتبعه رشح الخير الدائم والبركات، فتلزمها استعدادات. فلو كانت كلّها أنواراً لأفسدتْ ما تحتها من فرط الحرارة؛ ولو كانت عريّةً عن النور بقيت العنصريات في ظلمة بدأ؛ ولو ثبت نورها على موضع واحد لأثّرتْ بإفراط فيما قابلها مع حرمان غيره من نورها؛ ولوْ لازَمتْ دائرة واحدة لأثّرتْ أيضاً بإفراط فيما قابلها وتفريط فيما وراء ذلك.

(٤٦) انظرْ كيف جعل لكل فلك حركة سريعة يوميّة بالعرض تابعة للمحرّك الأقصى، وحركة أخرى لنفسه بطيئة يميل بها إلى النواحي. ولو أنّ ما بين الأرض والأفلاك ذا لون ما وقع الشعاع على الأرض. ولو لم تكن الأرض متلوّنة ما ثبت عليها الشعاع. ولو أنّ غير النار جاور الفلك لسخنه بالحركة وأفسده، فوُضع النار عند الفلك. ودونها، الهواءُ المشارك لها في الحرارة. ودون الهواءِ الماءُ المشارك له في الرطوبة. ودون الماءِ الأرضُ التي هي الثّقيل المطلق المشارك له في البرودة. والماء إن أحاط الأرض منعت الحيوانات الشريفة عن استنشاق الهواء وهي محتاجة إليه، فكان الماء موجباً للأخاديد المانعة عن الإحاطة. رحمة من الله على خلقه وخليفته.

فصل [١٤] ـ [في حكمة القوى وكيفيّة ترتّبها]

(٤٧) ألم ترَ ـ يا عارف ـ إلى ربّك، كيف خلق للعنصريّات حرارةً هي محلّلةٌ ملطّفة محرّكة، وبرودةً مسكنة عاقدة، ورطوبةً قابلة للتشكل وفقه، ويبوسةً حافظة للأشكال والتقويم. ولمّا كانت هذه الحيوانات محتاجةً إلى عناية الجوهر اليابس الحافظ للصور وأشكال الأعضاء وربط الأجزاء، كيف خُلقت في الوسط عند الجوهر اليابس البارد، وكيف رَكّب العناصرَ، وأعدّ لكلّ مزاج كمالاً. ولمّا كان النبات والحيوان لم يحصل دون أن يقبل التحليل كيف ركّب لهما قوّة غاذية متصرّفة في الغذاء، المحيلة له إلى شبيه جوهر المغتذي.

ولمّا كان لم يحصل الحيوان والنبات على كمالهما أوّل مرة كيف رَتَّب النّاميةَ الموجبة لزيادة أجزاء المغتذي في الأقطار على نسبة محفوظة.

وكيف استبقى نوعَ ما وجب فساده بقوّة مولّدة قاطعة لفضلة من مادة وهي مبدأٌ لشخص آخر.

وقد دلّك على تغاير هذه القُوى وجودُ الغاذية أوّلاً دون المولّدة وبقاءُ المولّدة والغاذية بعد النامية.

وكيف رتّب للغاذية ما يخدمها من قوّةٍ جاذبةٍ يأتيها ما تصرّف فيه وهاضمةٍ محلّلة للغذاء، معدّةٍ إيّاه لتصرّف الغاذية، وماسكةٍ تحفظ الغذاء لتصرّف المتصرّف، ودافعةٍ لما لا يقبل المشابهة.

وكيف رتّب للحيوان قوّة مدركة ومحرّكة وزاد للمزاج الأشرف الإنسانيّ كلمةً مدركة، إذا كملتْ عادت إلى ربّها. فإذا فارقت، صارت مَلكاً ومُلكاً، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[1] لـهـم ﴿وَحِكَمٌ بِالْبَصَرِ خَطِيئَتُهُ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[2].

(٤٨) فهلمّ يا عارف! نسبّح بربّنا طرباً وشوقاً. فهلمّ! يا عارف نفرح ونزمرم بالتهليل والتّكبير. هلمّ يا أخا الحقيقة! نقدّس الربّ بصوت حزين. هلمّ يا أخا الحقيقة! ندعو قيّم العالم بقلب كئيب وروح شيّق، ونغمة رخيمة. بادرْ يا عارف! لنذكرَ ربّنا ونناديه نداء خفياً في حِنْدِس الليالي. يا عيون المحبّين! أين دموعكم الماطرة؟ يا قلوب المشتاقين! أين زَفَراتكم الصاعدة؟ يا أرواح العارفين! أين رَنينكم؟ يا خواطر الواجدين! أين أنينكم؟ سبحانك لا إله إلاّ أنت يا ربّ الأرباب، يا ممدّ الملكوت بنور جلاله! يا من إذا تجلّى لشيء خضع له! يا خفي اللطف! يا من رشّ نورَه على ذوات مظلمة، فنوّرها، وقذف شعلة شوقه على الأفلاك فدوّرها وسيّرها! خضعت لعظمتك الرّقاب ولانت لهيبتك الصلاب! تلذّذت بذكرك لأرواح الرّاقصات. ووكدت لبارق عزّتك الحواس الحائرات. يا من بَرَقَ برقُ عزّته في سرائر المنيبين، وزَمْجَرَ رعد هيبته في قلوب الخاشعين! يا صاحب الكلمة العليا

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

وربّ السّكينة الكبرى! هبْ لنا من لدنك رحمةً إنّك أنت الوهّاب. أفِضْ على نفوسنا لوامع بركاتك، وعلى أرواحنا سواطع خيراتك، اجعلْنا من السّعداء العارفين لجلالك، المشاهدين بجمالك، الذّاهبين فيك! إنّك على ما تشاء قدير.

فصل [١٥] ــ [في إبطال مذهب الطّبايعيّة وتكذيب جالينوس]

(٤٩) لمّا تبيّن أنّ الإنسان ما خُلق عبثاً وأنّه راجع إلى الله تعالى يوم الحشر، فعلمت بطلان مذهب الحشيشيّة والطبايعية. ودربت كذب جالينوس وأتباعه من الذين يظنّهم الجاهل حكماء، وهم في طغيانهم متحيّرون، يكذبون أنبياء الله، ولا يرجون اليوم الآخر، فمنقلبهم دار العذاب.

فصل [١٦] ــ [في إبطال القول بقدم العالم]

(٥٠) لمّا دريت أنّ العالم محتاج إلى الصانع، وأنّه ممكن الوجود، مفتقر إلى موجد فلا يتصوّر أن يكون قديماً؛ إذ ليس القديم إلاّ واجب الوجود تعالى وتقدس ـ فتبيّن لك بطلان مذهب الملاحدة الّذين زعموا أنّ العالم قديم، وأن لا قيّم للعالم. ودريت أنّ الأفلاك كلّها دائرة بأمر الله تعالى وكلمته، لا بطبعها كما زعموا.

فصل [١٧] ــ [في معنى الأب والابن وضلالة النصارى]

(٥١) ولمّا دريت أنّ البارئ لا يتقوّم بأجزاء ـ فيما سبق في الذّكر ـ، خسرت النصارى حين قالت: لله ابن، بل كان في صحيفتهم «الأب» بمعنى المُبدع، وهو واجب الوجود. وروح القدس عرفته. والكلمة هو الابن لروح القدس على معنى التّسبّب، لا كما قالوا على ما عرفت.

فصل [١٨] ــ [في بيان ضلالة اليهود في منع النسخ]

(٥٢) ضلت اليهود حين منعت النسخ وقالوا: «هو النّدم»؛ ولمّا علمت أنّ التّغيرات واقعة على الأجرام، لا على الله، فأمره غير متغيّر بل العالم متغيّر؛ وكما أنّ بتغيّر العالم لا يلزم تغيّر المبدع، فبتغيّر الأحكام لا يتغيّر البارئ؛ بل تغيّر الحكم بإزاء تغيّر الخلق سواء.

فصل [١٩] ـ [في بيان ضلالة الثنويّة وأنّ الشّرور أقلّ من الخيرات]

ضلّت المجوسيّة حيث قالت: «إن لله شريكاً»؛ إذْ لا اثنان هما واجبا الوجود. وما زعم البعض من أنّ الصانع حدث فيه ما أوجب الشّر فعلمت أنّ الكلام يعود إلى ما حدث على ما سبق؛ فإنّ البارئ لا يتغيّر، وليس فيه جهة فاعليّة وقابليّة فتتعدّدَ ذاته؛ بل إنّما أضلّتهم جهة الإمكانية التي في أوّل ما خلق الله تعالى. والإمكان والعدم منبعان للشر، وإنّ الشر لا ذات له، بل هو عدمٌ ما لكمالٍ أو غيره، إذ وجود شيء لا يبطل شيئاً عن غيره، ولا يكون ضرراً لنفسه ولا لغيره، وما يعدّ شرّاً فإنّما هو لتأدّيه إلى ما قلنا.

(٥٤) ومن الأجسام ما لا يتصوّر وجوده إلاّ ويتبعه شرّ قليل أقلّ من نفعه، كالنار المُحرِقة لاتّفاق حركات سابقةٍ ثوبَ فقير. ولا يمكن أن تُجعَل النّارُ غير النار، والفلك غير الفلك، وبالضّرورة يلزم عنهما نحو هذه ولا يجوز أن يترك خير كثير لشر قليل، فيكون الشرّ شراً كثيراً. وإنّما لزم عن الجهة الإمكانية اللازمة عمّا أبدعه الله تعالى أوّلاً، ولوازم الماهيات لذاتها لا إمكان لرفعها.

فصل [٢٠] ـ [في الإشارة بحكماء الفرس وإحياء حكمتهم النورية]

(٥٥) وكانت في الفرس أمّةٌ يهدون بالحق، وبه كانوا يعدلون، حكماء فضلاء غير مشبهةٍ المجوسَ، قد أحيينا حكمتهم النّورية الشريفة التي يشهد بها ذوق أفلاطون ومن قبله من الحكماء في الكتاب المسمّى بـ «حكمة الإشراق» وما سُبِقتُ إلى مثله.

فصل [٢١] ـ [في الإشارة بشروط ورود الخلسات]

(٥٦) من أدامَ فكره في الملكوت، وذكرَ الله ذكراً صادراً عن خضوع، وتفكّر في العالم القدسيّ فكراً لطيفاً، وقلّل طعامه وشهواته، وأسهرَ لياليه متملّقاً متخشّعا عند ربّه، لا يلبث زماناً طويلاً، حتى تأتيه خلسات لذيذة، كالبرق تلمع فتنطوي، ثمّ تلبث في نفسه وتبسطه وتطويه.

فصل [٢٢] ـ [في الخُلق والعدالة وأقسامها وفروعها]

(٥٧) كمال الكلمة تشبّهُها بالمبادئ بحسب الطاقة البشريّة، فلا بدّ من التجرّد بحسب القدرة وينبغي أن تكون للكلمة، الهيئةُ الاستعلائيّة على البدن، لا للبدن عليها. فكمالُها من جهة علاقتها مع البدن، الخُلقُ المسمّى بـ «العدالة». و«الخُلق» إنّما هو هيئة تحدث للنّفس الناطقة من جهة انقيادها للبدن أو انقياد البدن لها.

(٥٨) والعدالة هي حكمة، وشجاعة، وعفة. و«العفّة»: هي توسُّط القوّة الشهوانيّة فيما تشتهي ولا تشتهي بحسب الرأي الصحيح، وهي متوسّطة بين «الشّبق» و«الخمود». و«الشّجاعة»: هي توسّط القوّة الغضبيّة فيما يغضب له ولا يغضب، بحسب الرأي الصحيح، وهي متوسّطة بين «الجبن» و«التهوّر». و«الحكمة» توسّط القوة العمليّة فيما يدبّر به الحياة ولا يدبّر، وهي متوسّطة بين «البلادة» و«الجربزة». وهذه الحكمة غير الحكمة التي هي ارتسام الحقائق في النفس، فإنّها كلّما كانت أكثر فأجود؛ كيف وقد قيل لصاحب الشرع عليه السلام: ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ خَطِيٓـَٔتَـٰتُهُۥ﴾[1]. وكلّ الفضائل والرّذائل متعلّقة بهذه القُوى الثّلاث.

(٥٩) فممّا يتعلّق بالنّفس من تفاريع الحكمة:

«**الفطنةُ**»: وهي جودة «الحدس»: وهو سرعة هجوم النّفس على المبادئ إلى الحقائق من غير طلب كثير؛ ويوازيها من الرذائل «الغباوةُ»؛ و«البيان»: وهو تحسين نقل ما في ضمير المخاطب إلى ضمير من يخاطبه، ويقابله «العيّ»؛ و«إصابة الرأي»: وهي حسن ملاحظة عواقب الأمور التي يتفكّر فيها، حتى يدرك جهة الصواب على الوجه الملائم؛ و«الحزم»: وهو تقديم العمل في الحوادث الممكن وقوعُها بما هو أسلمُ وأبعدُ عن الضرر، ويوازيه «العجزُ»؛ و«الصّدق»: وهو موافقة الآلة المعبّرة، للضّمير، بحيث يتوافقان إيجاباً وسلباً. وصدقهما هو موافقتهما للأمر في نفسه، ويوازيه «الكذبُ»؛ و«الوفاء»: وهو ثبات النّفس على مقتضى ما

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

ضمنتْ والتزمتْ، ويوازيه «الجفاء» و«الغدرُ»؛ و«الرحمة»: وهي لحوق الرّقة على ما حلّ به المكروه من الجنس، ويقابلها «القساوةُ»؛ و«الحياء»: وهي هيئة للنفس تقتضي حسنَ الامتناع عن أمر يلاحظ تأدّيه إلى اللّوم، ويوازيها «الوقاحةُ»؛ و«عِظَمُ الهمّة»: وهو أن لا يرضى الإنسان من الفضائل إلاّ بأعلى ما يقدر عليه، ويوازيه «دنائةُ الهمّة»؛ و«حسن العهد»: وهو المحافظة على أحوال القربات والصداقات والاعتناء بها وتذكُرّها، ويوازيه من الرّذائل «سوءُ العهد»؛ و«التّواضع»: وهو حطّ الإنسان نفسه دون منزلة يستحقّها من غير مقتضيهِ، ويوازيه «التكبّر» و«الصلَف».

(٦٠) **ومن تفاريع الشهوانية:**

القناعة: وهي ضبط القوّة الشهوانية عن الاشتغال بالزّائد على الكفاية، وعن الحرص على ما يشاهد من الغير وهي بين «الحرص» و«الاستهانة بتحصيل الكفاية»؛ و«السخاء»: وهو ملكة الإنسان لبذل ما له من المال لجنسه على حسب الحاجة والرأي الصحيح وهو بين «البخل» و«الإسراف».

(٦١) ومن تفاريع الغضبيّة:

الصّبر: وهو ضبط القوّة العضبيّة عن شدّة التأثّر بالمكروه النازل الذي يوجب العقلُ احتمالَه وعدم الجزع عنه، أو ضبطُها عن حبِّ مشتهىً يوجب العقل اجتنابَه؛ و«الحلم»: هو الإمساك عن الابتداء إلى دعاء الغضب إلى الانتقام من الجاني، بحسب ما يقتضيه العقلُ لا بِناءً على مانع خارج؛ و«سعة الصدر»: وهو أن لا تتأثّر النّفس بهجوم الحوادث بحيث تتحيّر، بل تستعمل الواجبَ وإنْ عظُمَ الوارد؛ و«كتمان السرّ»: وهو ضبط قوّة الكلام عن إظهار ما في الضمير في غير وقته وأهله؛ و«الأمانة»: [وهي] حفظ النّفس عن التّصرّف في مال الغير عنده وذبّه عنه لينتفع به، وحفظ ذلك عن غير صاحبه إلاّ بإذنه، وضبطه عمّا يفسده بحسب الطاقة إن كان ممّا يحتاج إلى ذلك.

ويقابل هذه الأشياء، «الحقدُ والحسدُ وسرعةُ الانتقام والشّتيمةُ والنّميمةُ والغيبةُ وإذاعةُ السّر وضيقُ الصّدر والخيانةُ.

فصل [٢٣] ـ [في شرح بعض مصطلَحات الصّوفيّة]

(٦٢) ولمّا كان الورد على النّفس: إمّا أمرًا متعلّقاً بالبدن، أو أمراً متعلّقاً بالقدس، فاصطلاحاتُهم تحوم حولَ هذه الأشياء.

(٦٣) اعلم أنّ «المقام» عندهم هو «الملكة»: وهي القدرة على الشيء متى أريدَ من غير احتياج إلى تفكّر وكسب واستصعاب.

الحال: عبارةٌ عن كمالٍ سريع الزّوال غير محسوس.

الخاطر: هو ما يرد على النّفس من السّوانح الداعية إلى أمرٍ ما ـ كان متعلّقا بالجنبة العالية أو السّافلة ـ.

خاطر الشّيطان: هو الوهم المجّرد، وهو معارضة الوهم للعقل في أمور غير محسوسة كَإنكاره لموجودٍ لا في جهة وتناهي الامتدادات، وإنكاره لنفسه وغير ذلك. وأيضاً، من خاطر الشّيطان أُخِذَ ما يرد من الدّاعي إلى العبادة وصالح العمل، لإراءة النوع.

خاطر النّفس ـ عندهم ـ. سوانح من قبل القوة النزوعية، داعية إلى تحريكات شهوانيّة أو غضبيّة.

وخاطر النّفس ـ عند أكثرهم ـ عبارةٌ عن مجرّد القوّة النزوعية. وهاهنا خاطر آخر سمّوه «خاطر المَلَك»: وهو ما يرد على النفس من إصلاح القوّة العمليّة، وتحصيل العدالة، وطلب السّعادة الوهمية التي للبُله والعامّة.

خاطر الحق: هو ما يرد على الكلمة الزكيّة من الداعي إلى إشراقها على كمالات القوّة النّظرية، وتعرضها لإشراق الأنوار اللّذيذة عليها.

وربما خصّ بعضهم هذا الخاطرَ ما دام الإنسان مبتهجاً بلذّاته ومعارفه «خاطرَ الرّوح»؛ فإذا عبر هذا المقام فهو «خاطر الحق».

الخاطر الردية يقطع بذكر الله وأنواره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾[١].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

التوبة: عبارة عن تألّم النّفس على ما ارتكبتْ من الرّذائل مع جزم القصد إلى تركها وتدارُك الفائت بحسب الطاقة.

الإرادة: هي أوّل حركة للنفس إلى الاستكمال بالفضائل.

و«المُريد: هو طالب الطّهارة الحقيقيّة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١) فقد جمع المقامَينِ.

الرجاء: هو ابتهاج النفس بملائم لها أخطرتْ إمكان حصوله في المستقبل.

الخوف: هو تألّم النفس بمكروهٍ أخطرتْ إمكان حصوله في المستقبل؛ ويتخصّص عندهم بالأمور والهيئات النفسانيّة من الفضائل والرذائل.

الزهد: هو الإمساك عن الاشتغال بملاذ البدن وقُواه إلاّ بحسب ضرورة تامّة وهو يزيد على «القناعة» بترك كثير من الكفاية العرفية. «الصبر»: قد مضى ذكرُه.

الشكر: هو ملاحظة النفس لما نالتْ ممّن أنعم عليها من إعطاء ما ينبغي لها أو دفع ما لا ينبغي ـ كان من كمالات النفس أو البدن ـ وتحريك الآلة المعبّرة لإخبار النوع بذلك. لمّا لم يكن «الشكر» من شرطه أن يكون لكمال بدنيّ، صارَ أفضل من «الصبر»، لأنّه ملاحظة النّعمة كنت نفسانيّة أو بدنيّة، والصّبر متعلّق بالبدنيّات.

ومن فضيلة الصّبر والشّكر أنّه خُصّص الاعتبار بالآيات بهما، حيث قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٢) وغير ذلك ممّا لا يخفى. «التوكّل»: ـ على اصطلاحِهم ـ هو دوام حسن ملاحظة القضاء والقدَر في جميع الحوادث، دون اقتصار النّظر على الأسباب الطبيعيّة.

الرّضاء: ـ في مصطلَحهم ـ ملكةٌ تلقي النفس لما يأتي به القدر من الحوادث الجرمانية، على وجهٍ لا تتألّم بوقوعه، بل مع ابتهاج لطيفٍ نظراً إلى العلّة السّابقه العجيبة.

المعرفة: هو ارتسام الحقائق في النّفس ـ بمقدار ما ترتقي إليه طاقةُ البشر ـ من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢. (٢) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

ذات واجب الوجود وما يليق بصفاته وأفعاله ونظام صُنعه؛ وعالم الجبروت وهو العالم العقليّ؛ وعالم الملكوت وهو العالم النفسانيّ؛ وعالم المُلك وهو عالم الأجرام؛ وكيفيّة المعاد ونحوه.

المحبّة: هي الابتهاج بتصوّر حضرة ذاتٍ ما.

الشوق: هي الحركة إلى تتميم هذه البهجة. وكلّ مشتقاق وجد شيئاً وعدمَ شيئاً فإذا وصل بالكليّة، بطل الشّوق والطّلب.

الوجد: عبارةٌ عن كل ما يرد على النفس وتجده في ذاتها من الأمور المتعلّقة بالفضائل.

التّواجد: هو استجلاب الوجد بالتكلّف.

البسط: هو كون النفس فيما هي بسبيله على نشاط وضرب بهجة.

القبض: هو حزن النفس يكاد يبطل دواعيها فيما هي فيه. وقد يكون لكلال القُوى الجرمانية، أو لقنوط، أو لإلهام ونوم محزِن لم يبقَ في الذُّكر عينه، ولكن بقي أثره، فيتحيّر الشخص في سببه. وقد يكون لشهادة النفس بالنكبة، وغير ذلك، مبادئ الرحمة والنّفحات.

اللّوائح: هي خلساتٌ لذيذة نوريّة تطرأ فتنطوي بسرعةٍ كالبروق الخاطفات؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(١).

السّكينة: خلسةٌ لذيذة تَثبتُ زماناً أو خلساتٌ متتالية لا تنقطع حيناً من الزمان وهي حالة شريفة.

ومن اللّوائح والسكينة تنشقّ جميع الأحوال الشريفة.

والسّكينة هي ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾(٢) قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). فإذا حصلتْ ملكة السّكينة سهلَ الأمر.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٢.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٤.

الجمع: وهو إقبال النّفس على الجنبة العالية دون الالتفات إلى الكثرة الجرميّة.

التفرقة: هي كون النّفس متصرّفة في القوى البدنيّة المختلفة. وقال قائلهم:

وتحقّقتك في سرّي وناجاك لِساني
فاجتمعْنا لمعاني وافترقْنا لمعاني
إن يكنْ غيبك التعظيم عن لحظ عياني
فلَقدْ صيّرك الوجد من الأحشاء داني

الغيبة: هي خلسةٌ للنّفس إلى عالمها بحيث تغيب عن الحواسّ. والغيبة عن الحواسّ حضورٌ في الغيب، وحضور الحواسّ غيبةٌ عن القدس وقال قائلهم:

إذا نأى عَذّبَني وإنْ دَنى قرّبَني **إذا تغيّبتُ بدا وإن بدا غيّبني**

السّكر: سانح قدسي للنّفس يؤدّي إلى إبطال النظام عن الحركات.

الصحو: هو الرجوع عن هذه الحالة.

الهيبة: حالٌ يرد على النفس النّاطقة عند ملاحظة مراتب المبادئ فلا تستأهلُ نفسها للقرب، ولا لِلانتساب إلى واجب الوجود وإن كان بنسبة بعيدة.

الأنس: حالة للنفس تتضمّن ابتهاجاً لها، فتصير مطمئنّة بالنسبة إلى المبادئ وما يرد عليها من النّور الملِذّ.

التّوحيد: ليس عبارة عما هو مشهور من معرفة الله تعالى بالوحدانيّة والقيّوميّة، بل هاهنا عبارة عن إفراد الكلمة عن عوائق علائق الأجرام بحسب الإمكان، على وجهٍ يطوي ملاحظة المبادئ والترتيب في العظمة القيّوميّة؛ فليس وراءه مقام وإن كانت فيه مراتب. «المكاشفة»: هي حصول علم للنّفس إمّا بفكر أو بحدس أو لسانح غيبيّ متعلّق بأمر جزئي واقع في الماضي أو المستقبل.

المشاهدة: هي شروق الأنوار على النفس بحيث تنقطع منازعة الوهم.

وقد خصّها بعض الناس بما ترتسم من الصور الغيبية في الحسّ المشترك،

فيرى ظاهراً محسوساً؛ وإن كان في زماننا جماعة من الجهّال يظنّون دعابة المتخيّلة ـ إذا استهزأتْ بهم ـ مشاهدةً.

الوقت: عندهم ليس عبارة عن مجرد لذة أو نور، بل عبارة عن هيئة فلكيّة أوجبتْ حصول هيئة للنفس الناطقة طرأت بطريانها وزالت بزوالها؛ فقالوا: «الوَقْتُ سيفٌ قاطعٌ» و«الصّوفي إبنُ الوقتِ» فربّ هيئة أوجبتْ حالاً من غير تعجّب كثير، وما عادت بتجشّم كسب كثير؛ وهو على ما قال صاحب الشريعة «إنَّ لِرَبّكمْ في أيّامِ دهرِكم نفحاتٌ مِنْ رِحمتِهِ ألا فتعرَّضوا لَها»؛ فالأوقات موجبة للنّفحات.

الفناء: هو سقوط ملاحظة النفس للذّاتها من شدة استغراقها في ملاحظة ذاتٍ ما يلتذّ به.

وإذا سقط شعورها بما سوى محبوبها، وعن الفناء أيضاً، فهو «المحو» و«الطمس».

والعارف ما دام لا يزول عنه النظر إلى العرفان فهو بعد، متوسّط حتّى ينسى العرفان في جلال المعروف. وهذه الأشياء كلها على اللّذة النوريّة تبتني.

والسّكينة إذا تّمت على حسب الاستعدادات أوجبتْ هذه الأحكام. وقال سيد الطائفة الجنيد رحمه الله:

طـوارقُ أنـوارٍ تـلـوح إذا بـدتْ ... فتظهر كتمانا وتخبر عن جمع

وقد سُئل الشبلي رحمه الله فقيل: «هل تظهر آثار الوجد على الواجد؟ فقال: «أنوار تلوح على الأرواح فتظهر آثارها على الهياكل».

(٦٤) وأعلم أنّ الاصطلاحات متقاربة، وكلّها عبارة عن سوانح النفس، إمّا من البدن أو من العالم الأعلى الروحانية. وإثبات الروحانيات محو الجرميّات. وإثبات الصّور الجرميّة وشواغلها في النفس محوُ الأنوار ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[1] الذي هو واهب العلوم وفيه الصور الحقيقيّة بأسرها.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

وقد تتقدّم «المعرفة» على «المحبّة» وقد تتقدّم المحبة على المعرفة. والمعرفة إذا كملتْ أفضتْ إلى المحبة؛ والمحبّة إذا تّمتْ استدعت المعرفة. ولكن كثير من المحبّين يتلذّذون بالأنوار، ولا يعرفون حقائق العارفين. وقد شاهدتُ منهم جماعةً.

وما أحسن ما قال الجنيد: «لا تضرّ زيادة العلم مع نقصان الوجد وإنما تضرّ زيادة الوجد مع نقصان العلم».

والمحبّة من لوازم المعرفة وإن كانت المعرفة قليلة وكل معرفة توجب محبّة، وإن كانت المحبّة قليلة. فإذا كملت النفس بهما فذلك «نورٌ على نورٍ».

و«المُحبّ» من يكون لنفسه فطنةٌ وحدس قويّ ينال دون تعب عظيم ما لا ينال غيره. والرّجل لا يصير أهلاً إلاّ بالمعارف والمكاشفات العظيمة.

(٦٥) وأمّا الاتصال والامتزاج فليس بمتصوّر على المعاني الظاهرة فيما ليس بجسم، ولا الاتحاد؛ فإنّ النفوس بعد المفارقة إن اتّصلتْ بعضها ببعض، أو بواجب الوجود، أو امتزجتْ فهي أجسام، وهذا محال. وشيئان غير جسمين لا يمكن اتّحادهما؛ فإنّه إن بقي كلاهما فهما اثنان فلا اتّحاد؛ أو بطل كلاهما فلا اتّحاد؛ أو بقي أحدهما وانتفى الآخر فلا اتّحاد أيضاً؛ بل هذه ألفاظ كلها راجعة إلى اختلاس النفوس واستغراقها في اللذة والبهجة على ما سبق.

(٦٦) والنفس ليست واحدة لجميع الأبدان، وإلاّ كان مدرَك كلّ واحد مدرَكًا للكلّ وأَنائيّة كل واحد بعينها أَنائية الآخر، وهو محال.

(٦٧) وهذه الأحوال كلّها راجعةٌ إلى علوم ولذّاتٍ سمّيت تلك اللذات إن كانت سريعةَ الزوال «سوانح». فإذا ثبتت على جهةٍ تسمّى باسمٍ، وعلى أخرى بآخر. والكلّ راجع إلى علم أو بهجة معرفة، وانتقاش بأمر غيبي يتأدّى إلى الحسّ المشترك. وما يُتوّهم من الاتّحاد فإنّما هو لشدّة قرب. وقد اعترف به الحلاج رحمه الله حيث قال: «أَدْنيتَني منك حتى توهَمتُ أنّك أنّي» بل اعترف الحكماء والعلماء والأولياء با [لا] تّصال بالعالم الأعلى وهو عبارة عن رفع الحجب، فيكون اتحاداً عقلياً.

وهاهنا أمورٌ كتمانها أولى من نشرها. وإذا ضبطت نفسك عن الاشتغال بالزائد على مهمّ بدنك الضروريّ، واستكملتَ بالعلم، [أوتيت كثيرا] من الفضائل. وعليك بالتسابيح والأوراد وقطع الخواطر الرديّة وإنقاذِ الخواطر الجيّدة. والخاطر الرديّ إذا قطعته أوّلاً نحوتَ منه، وإلاّ يتأدّى بك إلى ما لا يلائم. وأكْثِر الدعاءَ في أمر آخرتك. واسْئَلِ الله تعالى ما يبقى معك أبدا، لا ما يزول. ولا تتكلّمْ قبل الفكر. ولا تتعجّبْ بشيء من حالك؛ فإنّ الواهب غير متناهي القوة. وعليك بقراءة القرآن مع وجد وطرب وفكر لطيف. واقْرَأ القرآن كأنّه ما أنزِل إلاّ في شأنك فقط. واجْمعْ هذه الخصال في نفسك فتكون من المفلحين.

(٦٨) واعلم أنّ «الصّوفي» هو الذي اجتمعتْ فيه جميع الملكات الشريفة؛ و«التّصوّف» اصطلاح على هذه. وآخر ما أوصيك به تقوى الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٢.